

الإساءة إلى الذات الإلهية

قراءة نفسية اجتماعية وأخلاقية في الأسباب والدوافع

بقلم

د. مصطفى سوادى جاسم

باحث في مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية



مقدمة

تمثل العلاقة بين الإنسان والمقدس إحدى أعمق العلاقات في التاريخ البشري، إذ ارتبطت الأديان منذ نشأة الحضارات بتفسير الوجود ومنح الإنسان المعنى والطمأنينة والهوية، ولذلك فإن أي موقف عدائي تجاه الذات الإلهية أو المقدسات الدينية يُعد ظاهرة تستحق الدراسة والتحليل، ليس فقط من زاوية الحكم الديني أو القانوني، وإنما من خلال فهم العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية التي تقف خلفها.

وفي العقود الأخيرة، ومع اتساع فضاء التواصل الرقمي وتزايد الأزمات السياسية والاجتماعية في العديد من البلدان، برزت أنماط من الخطاب تتضمن الإساءة إلى المقدسات أو التجرؤ على الذات الإلهية، الأمر الذي أثار تساؤلات واسعة حول أسباب هذه الظاهرة وجذورها العميقة، ويزداد هذا التساؤل أهمية في الحالة العراقية التي عاشت خلال العقود الماضية تحولات عنيفة وحروباً وصراعات تركت أثراً عميقاً في البنية النفسية والاجتماعية للمجتمع.

ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة بعامل واحد كال فقر أو الجهل أو ضعف التدين، بل هي نتاج تفاعل معقد بين الظروف النفسية والاجتماعية والثقافية، فضلاً عن العوامل الروحية والأخلاقية التي تناولتها النصوص الدينية وروايات أهل البيت عليهم السلام.

أولاً: التفسير النفسي لظاهرة الإساءة إلى الذات الإلهية

تُعدّ المقاربة النفسية من أهم المداخل لفهم ظاهرة الإساءة إلى الذات الإلهية، إذ تنطلق من أن السلوك الإنساني لا يصدر بمعزل عن الحالة النفسية للفرد وما يمر به من انفعالات وصراعات داخلية. فالكثير من المواقف العدائية لا تكون ناتجة عن قناعة فكرية راسخة بقدر ما تكون تعبيراً عن أزمات نفسية متراكمة أو استجابات انفعالية لظروف ضاغطة.

ومن أبرز التفسيرات النفسية لهذه الظاهرة نظرية "الإحباط - العدوان"، التي تفترض أن الإنسان عندما يعجز عن مواجهة مصادر ألمه أو معاناته الحقيقية، قد يحول غضبه نحو رموز أخرى ذات حضور قوي في وعيه النفسي والاجتماعي. ومن هذا المنظور، يمكن فهم بعض حالات الإساءة إلى المقدسات بوصفها انعكاساً لمشاعر الحرمان أو الفشل أو الظلم التي لم يجد صاحبها وسيلة أخرى للتعبير عنها.

كما أن التعرض لصدمات قاسية أو فقدان الأحبة أو الإخفاقات المتكررة قد يثير لدى الإنسان تساؤلات وجودية عميقة حول العدالة الإلهية ومعنى الألم والحياة. وإذا افتقد الفرد إلى التوازن النفسي أو الرؤية الإيمانية التي تساعد على فهم هذه التجارب، فقد يتحول صراعه الداخلي إلى حالة من السخط أو الاحتجاج على الدين أو المقدس. ولذلك يرى بعض علماء النفس أن التمرد على المقدسات يكون أحياناً تعبيراً عن غضب من الواقع أكثر من كونه موقفاً فكرياً مستقراً.

ومن العوامل النفسية الأخرى الشعور بالعجز وفقدان السيطرة على مجريات الحياة، إذ قد يلجأ بعض الأفراد إلى تبني مواقف صادمة أو متطرفة لإثبات ذواتهم أو التعويض عن مشاعر النقص والتهميش. وقد تعزز وسائل التواصل الاجتماعي هذا السلوك من خلال منح المحتوى الاستفزازي قدرة أكبر على الانتشار والتفاعل،

مما يدفع بعض الأشخاص إلى البحث عن الشهرة أو لفت الانتباه عبر تبني خطابات مثيرة للجدل. كما يشير علماء النفس إلى أن بعض حالات الإساءة إلى المقدسات ترتبط بحالة من الفراغ الوجودي وفقدان المعنى، حيث يشعر الفرد بالعزلة والافتراق وعدم القدرة على تفسير معاناته أو إيجاد غاية لحياته، فيتحوّل غضبه من الظروف المحيطة به إلى احتجاج على المقدس ذاته. وعليه، فإن التفسير النفسي لهذه الظاهرة يربطها بجملة من العوامل المتداخلة، أبرزها الإحباط المتراكم، والصدمات النفسية، والشعور بالظلم والعجز، والأزمات الوجودية، والرغبة في إثبات الذات أو لفت الانتباه، وهي عوامل تجعل الإساءة إلى الذات الإلهية في كثير من الأحيان انعكاساً لأزمة نفسية أعمق من كونها مجرد موقف فكري أو عقدي.

ثانياً: التفسير الاجتماعي للظاهرة

ترتبط ظاهرة الإساءة إلى الذات الإلهية بالبيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها الفرد، فالسلوك لا يتشكل بمعزل عن الأسرة والمدرسة والأصدقاء ووسائل الإعلام، بل هو نتيجة عملية تنشئة اجتماعية مستمرة تؤثر في منظومة القيم والمعتقدات.

وتُعد الأسرة النواة الأولى في بناء شخصية الإنسان، فهي التي تغرس معاني الإيمان والاحترام وضبط الانفعال. وعندما تقوم التربية الأسرية على الحوار والقدوة الحسنة والرحمة، تنمو لدى الأبناء علاقة متوازنة مع الدين والمقدسات. أما الإهمال الأسري، أو العنف، أو التناقض بين القول والعمل، فقد يؤدي إلى اضطراب في تكوين هذه العلاقة، ويجعل بعض الأبناء أكثر قابلية للرفض أو التمرد.

كما تمثل جماعة الأقران عاملاً مؤثراً، ولا سيما في مرحلتَي المراهقة والشباب، حيث يميل الفرد إلى تقليد أصدقائه والسعي إلى قبولهم. فإذا كان المحيط الاجتماعي يستخف بالمقدسات أو يعدّ السخرية منها أمراً اعتيادياً، فإن احتمالية تأثر الفرد بهذا السلوك تزداد، خاصة إذا افتقر إلى وعي ديني وفكري راسخ. ويزداد هذا التأثير مع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي، التي أصبحت امتداداً لجماعة الأقران، إذ تتيح تداول المحتوى الاستفزازي بسرعة كبيرة، وقد تدفع بعض الشباب إلى تبني مواقف صادمة بدافع التقليد أو البحث عن الشهرة والتفاعل.

وفي الحالة العراقية، أسهمت الحروب والأزمات الاقتصادية والاجتماعية في إضعاف الدور التربوي لبعض الأسر، كما أفسحت المجال لتزايد تأثير البيئة الرقمية والأصدقاء في تشكيل أفكار الشباب وسلوكهم. لذلك فإن الحد من هذه الظاهرة يتطلب تعزيز دور الأسرة، وتفعيل دور المدرسة، وتوفير بيئات شبابية إيجابية تسهم في ترسيخ قيم الاحترام والحوار والانتماء.

ثالثاً: تفسير الظاهرة في ضوء روايات أهل البيت وعلماء الأخلاق

تنظر روايات أهل البيت عليهم السلام إلى التجرؤ على الذات الإلهية بوصفه انعكاساً لخلل في البناء الروحي والأخلاقي للإنسان، لا مجرد ألفاظ أو مواقف عابرة. فالإساءة إلى المقدسات هي نتيجة لمسار يبدأ بضعف المعرفة بالله، ثم يتطور مع قسوة القلب وسيطرة الأهواء حتى ينعكس على السلوك واللسان.

وقد جعل الإمام علي عليه السلام معرفة الله أساس الدين بقوله: "أَوَّلُ الدِّينِ معرفتُهُ"، في إشارة إلى أن تعظيم الله ثمرة لمعرفة صحيحة به، وأن الجهل أو الفهم المشوّه قد يقود إلى الانحراف والاعتراض. كما تؤكد الروايات أن الذنوب المتراكمة تضعف البصيرة، فقد ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: "ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة"، وهو ما يفسر كيف يفقد الإنسان تدريجيًا تعظيمه للمقدسات نتيجة قسوة القلب. كذلك تشير الروايات إلى أن السخط على البلاء قد يدفع بعض الناس إلى الاعتراض على الله تعالى، فقد قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "من سخط القضاء مضى عليه القضاء وأحبط الله أجره"، وهو ما يكشف أن بعض صور الإساءة قد تكون تعبيرًا عن غضب ويأس أكثر من كونها قناعة فكرية.

ويرى علماء الأخلاق أن الكبر والغرور من أخطر أسباب هذا الانحراف، مستدلين بقصة إبليس الذي لم ينكر وجود الله، وإنما منعه الكبر من الطاعة حين قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾. كما يؤكدون أن البيئة الاجتماعية لها أثر كبير في تشكيل المواقف، فالتربية الضعيفة، ورفقة السوء، والاستهانة المتكررة بالمقدسات قد تضعف هيبتها في النفوس.

وبذلك تفسر مدرسة أهل البيت هذه الظاهرة بوصفها نتيجة لتداخل عوامل متعددة، أهمها الجهل بالله، وقسوة القلب، والسخط على الابتلاء، والكبر، والتأثر بالبيئة الاجتماعية، مما يجعل معالجتها قائمة على بناء الوعي والمعرفة، وتعزيز التربية الإيمانية والأخلاقية، إلى جانب معالجة الجوانب النفسية والاجتماعية التي تغذي هذا السلوك.

رابعاً: الحالة العراقية

تمثل الحالة العراقية انموذجاً خاصاً لفهم هذه الظاهرة بسبب الظروف الاستثنائية التي مر بها البلد خلال العقود الأخيرة، فقد تعرض العراق إلى الحروب والحصار والإرهاب والصراعات السياسية والطائفية، الأمر الذي أدى إلى تراكم مستويات مرتفعة من الصدمات النفسية والإحباط الاجتماعي.

وفي ظل ضعف الخدمات وانتشار الفساد وتراجع الثقة بالمؤسسات، نشأت لدى بعض الفئات حالة من السخط العام على الواقع. وعندما يختلط الديني بالسياسي في الوعي الشعبي، قد تتحول خيبة الأمل من أداء بعض الجهات أو الشخصيات إلى موقف سلبي تجاه الدين أو المقدسات نفسها.

كما لعبت وسائل التواصل الاجتماعي دوراً مهماً في تضخيم الظاهرة، من خلال توفير بيئة تسمح بانتشار المحتوى الاستفزازي والصدام بسرعة كبيرة، فضلاً عن تشجيع بعض الأفراد على تبني مواقف متطرفة بحثاً عن الشهرة أو التفاعل.

ومع ذلك، فإن هذه الظاهرة تبقى محدودة قياساً بالحجم الكلي للمجتمع العراقي الذي ما يزال يحتفظ بدرجات مرتفعة من التدين والانتماء الديني مقارنة بكثير من المجتمعات الأخرى.

الاستنتاجات

1. إن الإساءة إلى الذات الإلهية ظاهرة متعددة الأسباب ولا يمكن تفسيرها بعامل واحد منفرد.
2. يسهم الإحباط النفسي والحرمان الاجتماعي في زيادة احتمالية ظهور السلوك العدائي تجاه المقدسات.
3. تؤكد روايات أهل البيت عليهم السلام أن ضعف المعرفة بالله وقسوة القلب والسخط على البلاء من أبرز الجذور الروحية لهذه الظاهرة.
4. يرى علماء الأخلاق أن الكبر والتمرد واليأس الوجودي عوامل تساعد على نشوء المواقف العدائية تجاه المقدسات.
5. تتميز الحالة العراقية بتداخل عوامل الصدمة الجماعية والأزمات السياسية والاقتصادية مع تأثير وسائل التواصل الاجتماعي.
6. تتطلب معالجة الظاهرة مقاربة شاملة تجمع بين الإصلاح التربوي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي إلى جانب تعزيز الوعي الديني والأخلاقي.

التوصيات

1. الانتقال من معالجة السلوك إلى معالجة أسبابه، وذلك من خلال اعتماد سياسات تربوية ونفسية واجتماعية تعالج الإحباط والاعترا ب وفقدان المعنى، وعدم الاكتفاء بالنظر إلى الإساءة للمقدسات بوصفها مخالفة قانونية أو دينية فحسب.
2. إعادة بناء الخطاب الديني على أساس المعرفة لا التخويف، من خلال ترسيخ مفهوم معرفة الله ورحمته وحكمته، لأن العلاقة القائمة على الفهم والمحبة أكثر قدرة على حماية الإنسان من التمرد من العلاقة القائمة على الترهيب وحده.
3. تعزيز برامج الصحة النفسية، ولا سيما للفئات التي تعرضت للحروب والصدمات والعنف، إذ تشير القراءة النفسية إلى أن بعض صور التمرد على المقدسات ترتبط بأزمات نفسية ووجودية أكثر من ارتباطها بقناعات فكرية مستقرة.
4. إدراج مهارات إدارة الأزمات الوجودية في المناهج التعليمية، عبر تعليم الطلبة كيفية التعامل مع الفقد والابتلاء والإحباط وأسئلة الحياة الكبرى، بما يعزز المرونة النفسية ويمنع تحول الألم إلى سلوك عدائي.
5. الفصل بين قدسية الدين وأخطاء المتدينين في الخطاب الإعلامي والثقافي، لأن الخلط بينهما يؤدي إلى انتقال الغضب من الأشخاص أو المؤسسات إلى المقدسات نفسها.
6. إطلاق برامج وطنية لتعزيز الثقة المجتمعية، تقوم على ترسيخ قيم العدالة والشفافية والمواطنة، لأن المجتمعات التي ترتفع فيها الثقة بمؤسساتها تكون أقل عرضة لظهور الخطابات العدائية والمتطرفة.
7. تطوير ثقافة الحوار الرقمي، عبر نشر الوعي بأخلاقيات التعبير في وسائل التواصل الاجتماعي، والحد من المحتوى الذي يقوم على الاستفزاز والبحث عن الشهرة من خلال الإساءة للمعتقدات والرموز الدينية.

8. إنشاء مرصد وطني لدراسة التحولات القيمية لدى الشباب العراقي، يتابع بصورة دورية اتجاهات التدين، والاغتراب، والثقة بالمؤسسات، وتأثير المنصات الرقمية، لتوفير بيانات علمية تساعد في بناء سياسات وقائية.
9. تعزيز دور الأسرة والمؤسسات التربوية في بناء الأمن الفكري والوجداني، من خلال تنمية الحوار داخل الأسرة، وربط الأبناء بالقيم الدينية عبر الإقناع والقدوة الحسنة، لا عبر الإكراه أو التلقين المجرد.
10. اعتماد مقارنة تكاملية في مواجهة الظاهرة، تجمع بين المؤسسات الدينية والتربوية والإعلامية والنفسية والاجتماعية.

خاتمة

تكشف الدراسة أن ظاهرة الإساءة إلى الذات الإلهية ليست مجرد موقف فكري أو انحراف لغوي عابر، بل هي انعكاس لأزمات أعمق تمس البناء النفسي والاجتماعي والروحي للإنسان. فحين يتعرض الفرد أو المجتمع لسلسلة من الإحباطات والحرمانات والصدمات، مع ضعف الوعي الديني والثقافي، يصبح أكثر عرضة للوقوع في أنماط من السلوك الاحتجاجي قد تصل إلى التجرؤ على المقدسات.

وتؤكد القراءة المستمدة من روايات أهل البيت عليهم السلام أن المشكلة لا تكمن في اللسان وحده، بل في القلب والعقل وطبيعة العلاقة مع الله تعالى، ولذلك فإن مواجهة هذه الظاهرة لا تكون بالعقوبات أو الإدانات وحدها، بل ببناء الإنسان معرفيًا وروحياً، وتعزيز العدالة الاجتماعية، وترسيخ ثقافة الحوار، ومعالجة أسباب الإحباط واليأس، بما يساهم في إعادة التوازن إلى الفرد والمجتمع وصون المقدسات من جهة، وحماية الإنسان من السقوط في دوائر السخط والاغتراب من جهة أخرى.

"إن حماية المقدسات لا تتحقق فقط بتجريم الإساءة إليها، وإنما ببناء إنسان يدرك قدسية ما يؤمن به، ويجد في دينه مصدرًا للمعنى والطمأنينة، وفي دولته العدالة، وفي مجتمعه الانتماء، وفي مستقبله الأمل".

تأسس مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية في بغداد بموجب شهادة التسجيل الصادرة عن الأمانة العامة لمجلس الوزراء -دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة (1J775330) بتاريخ ٢٦/٤/٢٠١٢، وهو مركز علمي بحثي يهتم بإجراء الاستطلاعات والدراسات الميدانية فضلاً عن إعداد الأوراق البحثية والمقالات حول قضايا الحياة المجتمعية للأسرة والمواطن، والدولة بمؤسساتها المختلفة.

- لا يجوز نشر أي من إصدارات المركز ونتائجته العلمية الا بموافقة خطية صريحة ويمكن الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملاً.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

للتواصل

00964- 7710122232



Alfaiidcenter2011@gmail.com



www.al-faidh.com



العراق - بغداد - الكرادة

